ابن خلدون والمقريزي، دراسة مقارنة في المنهج والحقول والمصادر

ملخص

زكرياء الهكار.[[1]](#endnote-2)

تتناول هذه الدراسة بالرصد والتحليل كل من المنهج التاريخي عند ابن خلدون والمقريزي، إذ تضمنت مقارنة بين اختلاف المناهج التاريخية لكل منهما، وكذاك اختلاف المصادر التي اعتمداها بالرغم من تزامن الفترة التي كتبا فيها، بالإضافة إلى مقارنة رؤيتيهما حول بعض المجالات التي كتبا فيها، مثل: المجتمع والاقتصاد.

قسمت هذه الدراسة إلى قسمين، القسم الأول خصصته للتعريف بابن خلدون والمقريزي، ومن خلاله أدرجت بعض أبرز مراحل حياتهما السياسية والعلمية، بينما القسم الثاني جاء مركبا بين ثلاث عناصر، العنصر الأول خصصته لمقارنة المنهج التاريخي عند ابن خلدون والمقريزي، والثاني للحقول التي تناولوها بالبحث والتنظير، وفي الثالث لطبيعة المصادر التي اعتمداها.

وفي الخاتمة خلص الباحث إلى تقديم أجوبة مباشرة عن الأسئلة الإشكالية التي جاءت في المقدمة، ومن أبرزها أن المعرفة التاريخية التي أنتجها ابن خلدون أثرت على مؤرخي عصره، ومن بينهم المقريزي غير أن هذا الأخير استطاع أن يشق طريق منهج جديد في البحث التاريخي بطرقه لمواضيع لم يشتغل عليها ابن خلدون.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون، المقريزي، المناهج التاريخية.

\* \* \*

**Ibn Khaldun and al-Maqrizi: A Comparative Study in Method, Fields, and Sources**

**Abstract**

*Zakariya al-Hakar*

Most of Arabic archives in early centuries was narrating incidents and news. Narrators were repeating what they heard from their ancestors without checking its authenticity. This was the reason behind the absence of the concept of the historian. This also created certain narratives that are similar to myth or contain some supernatural elements that prevailed in storytelling sets.

Ibn Khaldun created a new approach in historicizing past events and news. He turned similar history components to real living creators, thanks to his historical approach in relation to those incidents. His approach was applicable to society and history. In other words, He initiated an epistemic turn with past approaches of history processes which were limited to tell unquestioned news. At the other side, Miqrizi focused on the logical explanation of news to check its authenticity. He developed his approach by studying his society, monitoring historical incidents of his time, and comparing them with others from the past. Thus, he is similar to Ibn Khaldun. They both studied the past through the eye of the present.

Keywords: narrating incidents, Ibn Khaldun, Miqrizi, approaches to history.

\* \* \*

## تقديم

لن نبالغ إذا قلنا أن ابن خلدون تم ”قتله“ بحثا ودراسة، فألفت فيه مجلدات ونوقشت في فكره أطروحات كثيرة، كان القاسم المشترك بينها هو دراسة ابن خلدون، دون مقارنته بأبناء عصره، وذلك ما نرجعه إلى نقطتين: أولاها أن ابن خلدون شكل الاستثناء، وثانيها أن ما كتبه ابن خلدون شكل مادة دسمة للبحث، أسالت مداد المفكرين والمؤرخين على حد السواء، لكن هذه المعطيات لا تلغي إمكانية مقارنة ابن خلدون مع مؤرخين معاصرين أثروا وتأثروا بفكره. ومن هذا المنطلق نقدم هذه الورقة التي تعد دراسة مقارنة، بين مؤرخين كبيرين، الأول مغربي والثاني مشرقي، فالاثنين عاشا في نفس العصر، بل والتقيا التقاء الأستاذ بالتلميذ، الأستاذ ابن خلدون والتلميذ تقي الدين المقريزي، هذا التلميذ الذي نال حظه من الدراسة والشهرة في مصر، وذلك من خلال كتاباته الرصينة، الخارجة عن التقليد الممارس في الكتابة التاريخية السائدة في عصره، هاته الكتابة التي صنف أصحابها إخباريون أكثر منهم مؤرخين، بالتالي فالانقلاب على التوجه المنتشر يجب أن يكون مسلحا بأليات تنظيرية معرفية، قادرة على إنشاء أو حتى بناء علم قائم بذاته يؤسس للكتابة التاريخية، بمنهجيات محددة ومضبوطة، وهذه التنظيرات هي التي جاء بها ابن خلدون وأثرت في كتابات معاصريه ومن بينهم المقريزي، من هنا كان الداعي للقيام بهذه المقارنة هو معرفة إلى أي حد أثر الفكر الخلدوني على معاصريه؟ وما هي نقط الالتقاء والاختلاف بين منهج المقريزي وابن خلدون؟ وما هي الزوايا التي تم من خلالها تناول حقول دراساتهم؟ وماهي أبرز المصادر التي اعتمدها المقريزي وابن خلدون؟ وكيف تعاملوا معها؟

وكمحاولة للإجابة على هذه التساؤلات جاءت هذه الورقة مقسمة إلى قسمين، أما القسم الأول فتناولت فيه التعريف بابن خلدون والمقريزي، ومن خلاله أدرجت بعض أبرز مراحل حياتهما السياسية والعلمية، بينما القسم الثاني جاء مركبا بين ثلاث عناصر، العنصر الأول خصصته لمقارنة المنهج التاريخي عند ابن خلدون والمقريزي، والثاني للحقول التي تناولوها بالبحث والتنظير، وفي الثالث لطبيعة المصادر التي اعتمداها.

## 1. التعريف بابن خلدون[[2]](#endnote-3) والمقريزي

### 1. المولد والنشأة

 يرجع نسب ابن خلدون إلى حضرموت في اليمن فهو عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون، يقول في كتابه الذي عرف فيه بنفسه“ أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة“[[3]](#endnote-4) أما المقريزي فلم يترجم لنفسه في كتاب خاص كما فعل ابن خلدون، إلا أننا نجد كثيرا ممن ترجموا له ،فهو تقي الدين أحمد بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم التقي العبيدي -نسبة إلى الخلفاء الفاطميين- المقريزي، وهذه الشهرة التي لازمته تعود إلى إحدى حارات بعلبك التي عاشت فيها أسرته، قبل انتقال جده لأبيه منها إلى دمشق ومن بعدها إلى القاهرة التي ولد فيها مؤرخنا، سنة 766ه/1364م وتوفي فيها سنة 845هـ/1441م، بينما تربى ابن خلدون في كنف والده، وحفظ القران على أستاذه أبي عبد الله محمد بن سعد، كما أخذ قواعد النحو على والده و على أساتذة كثر، من بينهم الشيخ أبو عبد الله بن العربي الحصايري، وأبو العباس أحمد بن القصار وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي شيخ العلوم العقلية، الذي درس عليه ثلاث سنوات. كما درس الفقه المالكي عن جماعة من الفقهاء منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجياني، وأبو القاسم محمد القصير.[[4]](#endnote-5) في حين أن المقريزي حفظ القران عن جده لأمه ”الشمس بن صايغ الحنفي“ لينتقل إلى الدراسة في الأزهر على عدد من العلماء، منهم أبيي إسحاق التنوخي، وسراج الدين البلقيني، وعبد الرحمن ابن خلدون[[5]](#endnote-6) -كما أسلفنا- والذي تأثر المقريزي به كثيرا فنجده يقول فيه: ”الرجل الفاضل، جم الفضل، باهر الخلق رفيع القدر ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، خاص الزي، عالي الهمة عزوف عن الضيم، قوي الجأش، متعدد المزايا، شديد البحث كثير الحفظ، صحيح التصور، مفخر من مفاخر التخوم المغربية.“[[6]](#endnote-7)

### 2. الحياة السياسية والعلمية لابن خلدون والمقريزي

لقد خصص ابن خلدون منذ شبابه مساحة للاشتغال في السياسة، فقد بدأ مع ”محمد بن تافراكين“ حاكم تونس، بكتابة (العلامة) أي المسؤول عن وضع الاختام في المراسيم الصادرة، وذلك سنة 752هـ. لينتقل بعدها إلى فاس تلبية لطلب أبي عنان المريني الذي عينه كاتبا له بدء من أواخر 755هـ، ليترقى بعدها لمنصب أمين شؤون السلطان، وكما هو الشأن بالنسبة لابن خلدون، احتك المقريزي بالسلطة السياسية في مصر، فقد كان على اتصال وثيق ”بالسلطان برقوق“ وابنه ”فرج“ وهذا ما سهل له الاشتغال في مناصب مع الدولة المملوكية، فشغل منصب محتسب[[7]](#endnote-8) القاهرة وشغل كاتب الإنشاء (موقع بالديوان)، ثم عين نائبا من نواب الحكم، ثم عين بعدها إماما للجامع الحاكم الفاطمي وهي أهم وظيفة شغلها المقريزي، أما الوظائف العلمية فقد تعددت هي الأخرى لكلا المؤرخين، فعلى الرغم من انشغالات ابن خلدون السياسية إلا أننا نجده يذكر في ”التعريف“ أنه عمل على التردد على مجالس العلماء والشيوخ، المغاربة والاندلسيين، القادمين في السفارات، فاستمر على هذا الحال حتى الثامن عشر من صفر 758، وهو التاريخ الذي سجن فيه بسبب وشاية وصلت لأبي عنان، مفادها أنه تواصل مع الأمير محمد أمير بجاية، الراغب في استرجاع أراضيه وهذا ما أثار حفيظة أبي عنان الذي أمر بسجنه.

أفرج عنه بعد وفاة أبي عنان وتحكم الوزير الحسن بن عمر في السلطة في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة 759،[[8]](#endnote-9) وعاد بعدها ابن خلدون إلى مكانته السياسية وانتقل بعدها إلى غرناطة، في ظل حكم الأمير محمد الخامس، إلا أن كثرة الدسائس التي عانى منها وتطور الاحداث نحو الأسوأ، سرعت بعودته إلى بلاد المغرب التي كانت هي الأخرى تعرف اضطرابا سياسيا، أثر على نفسية ابن خلدون وجعلته يمل السياسة ويتفرغ للعلم.[[9]](#endnote-10) فتوجه إلى قلعة ”بني سلامة“ غرب الجزائر لينقطع فيها أربع سنوات ويخرج منها بأعظم كتبه ”المقدمة“.

توجه بعد ذلك إلى مصر سنة 784هـ، واستقر بها بعدما أكرمه السلطان ”الظاهر برقوق“ وكلفه بالتدريس في المدرسة القمحية، -وهنا التقى به المقريزي وتتلمذ عليه-،[[10]](#endnote-11) وعينه قاضياً للمالكية، ليتفرغ بعدها للعلم والتدريس والقراءة، حتى سنة 808هـ، وهي السنة التي توفي فيها، حيث استقر هناك أربعة وعشرين سنةً، من أصل أربعة وسبعين سنة من حياته قضاها متنقلا بين تونس والمغرب والأندلس والشام. في حين نجد المقريزي هو الأخر درَس بالمدرسة المؤيدية بناءً على توصية أستاذه ابن خلدون، ثم ما لبث أن نهج طريق أستاذه باعتزال الحياة السياسية، لينصرف إلى تدوين مؤلفاته التي بلغت عددا كبيرا حيث يشير أحد تلامذته إلى مئتي مؤلف، إلا أن ما وصل منها لا يكاد يتجاوز العشرين مؤلفا.[[11]](#endnote-12) ونرجع هذه الغزارة في الإنتاج إلى طبيعة الحياة التي حظي بها المقريزي والتي كانت مستقرة نوعا ما مقارنة مع ابن خلدون، الذي لم يكد يستقر في بلد ما حتى يشد الرحال لغيره، كما أن المقريزي استفاد كثيرا من ابن خلدون، وهذا ما فتح له أبواب البحث في حقول مختلفة ، فقد ألف ”المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار“ وهو نوع من الكتب تقدم معلومات طوبوغرافية وثقافية واقتصادية مرتبة ومصنفة، وقد شكل أفرد الكتب في هذا الباب،[[12]](#endnote-13) كما أنه أرخ للخلافة الفاطمية من خلال كتاب ”اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا“، وهو يعد من أفضل المصادر عن العهد الفاطمي لما تضمنه من معلومات المصادر المعاصرة التي ضاع كثير منها،[[13]](#endnote-14) والتي اتبع في كتابتها منهجا مخالفا عن من سبقوه. كما أن ابن خلدون هو الأخر خلف لنا إنتاج علميا مهما، فبالإضافة لمقدمة كتاب العبر -التي ارتبط اسمه بها-، والتي تعد المجلد الأول من أصل سبع مجلدات تكون منها الكتاب، ألف أيضا ”كتاب في المنطق“ و ”كتاب في الحساب“ أشار إليهما لسان الدين ابن الخطيب، وكتاب ”شفاء السائل لتهذيب المسائل“ المنسوب إليه، ومجموعة كبيرة من تلخيصات كتب ابن رشد.[[14]](#endnote-15) فلقد ساهمت تجاربه وتنقلاته الكثيرة في توسيع أفكاره وإكسابه معلومات قيمة قلما تجود بها أقلام معاصريه، فبالإضافة إلى كل المناصب السياسية والعلمية التي شغلها، نجد أن ابن خلدون كان شغوفا بالعلم لدرجة أنه هاجر إلى المغرب ليدرس على أيدي علمائها، إذ بعد غزوة السلطان أبي الحسن المريني إلى تونس سنة 748 وعودته إلى المغرب رفقة علمائه، عزم ابن خلدون على اللحاق بهم. أما تنقلاته السياسية فهي كثيرة إلا أنا أبرزها كان مقامه عند تيمورلنك خلال السفارة التي توجه بها إليه بطلب من السلطان المملوكي ”الناصر فرج“،[[15]](#endnote-16) فقد ساهمت هذه المهمة وغيرها في كتابة ابن خلدون تاريخ أقرب ما يكون إلى الشمولي.

نستنتج من خلال هذا التعريف أن هناك العديد من التقاطعات والتشابهات بين سيرتي ابن خلدون والمقريزي، بحيث أن كلاهما ينحدر من أسر مهاجرة، فأسرة ابن خلدون هاجرت من اليمن إلى الأندلس ثم توجهت بعدها إلى تونس، وأيضا انتقلت أسرة المقريزي من بعلبك لتستوطن في القاهرة بمصر. وكلاهما شغلا مناصب عليا في الدولة، إلا أن ابن خلدون لم يبقى حبيس الدولة المرينية كما أشرنا سابقا، فقد شغل مناصب في كل من دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط، والدولة المملوكية بمصر، وإمارة غرناطة بالأندلس، في حين أن المقريزي لم يخرج عن محيط الدولة المملوكية، وهذا الوضع هو الذي ساهم في استقراره في مصر، وعلى العكس من ذلك فابن خلدون من خلال كل التنقلات التي أشرنا لها لم يعرف موضعا للاستقرار، وهذا ما ساهم في نظرنا في عدم التحاقه بمؤسسة تعليمية كما فعل المقريزي حين التحق بالدراسة في الأزهر.

## 2. المنهج والحقول والمصادر عند ابن خلدون و المقريزي

### 1. المنهج التاريخي

تميزت معظم التصانيف العربية في القرون الهجرية الأولى بسرد الوقائع والأخبار ، فكان أصحابها مجرد ناقلين للأخبار من الذين سبقوهم، دون نقذها أو حتى الشك في مدى صحتها. وهذا ما ساهم في غياب مهنة المؤرخ (المحترف للكتابة التاريخية)، فبرزت مهنة الإخباري أو الروائي الذي أقحم إلى الكتابة التاريخية روايات يكاد يجزم العقل ببطلانها، بالإضافة إلى الأساطير التي تشيع أشخاصا أو أحداث لا يمكن تصديقها. من هذا الوضع الذي يمكن وصفه بالمتردي للكتابة التاريخية، انطلق ابن خلدون محولاً التاريخ من معلومات تاريخية جامدة، إلى وقائع متحركة، أسقطها على قوانين التاريخ والمجتمع، بمعنى أن ابن خلدون قام بقطيعة إبستملوجية مع المنهج السابق، المعتمد على نقل كل الأخبار دون التقصي منها. وهذا الطريق الذي رسمه ابن خلدون، هو الذي سايره فيه تلميذه المقريزي، ليرفض نقل الأخبار دون تقيمها ووزنها بميزان العقل والتي يخضعها لركائز من ذاتيته، أي قوانينه الخاصة التي بلورها واكتسبها من خلال احتكاكه بالمجتمع، ومراقبة الأحداث وتطورها، وذلك محاولة منه لفهم الماضي انطلاقا من قوانين الحاضر، وهو نفس طرح ابن خلدون حيث وضع عصره في مجرى التاريخ واعتبره من مراحله الحاسمة، فالتاريخ عنده يحتاج إلى ”مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبيت... لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ويقيس الغائب منها الشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يأمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق“[[16]](#endnote-17) فإذا ما ربطنا عصر ما قبل ابن خلدون والمقريزي بطبيعة الكتابة التاريخية السائدة، نجد أنه عصر نقل وسرد للأحداث، حيث اكتفى مؤرخو هذا العصر على تقليد المتقدمين، دون التنبه للأسباب و الدوافع التي جعلتهم يكتبون، ودون نقذ الاخبار الواردة إليهم، حيث تعلقوا بتفاصيل الماضي مستأصليها من سياقتها، فيخلدون في الحاضر ماضيا قد تجمد في تواريخ تتناقل على نحو ألي،[[17]](#endnote-18) فالقطيعة التي تحدثنا عنها أنفا، جعلت من المنهج الخلدوني، ينتقل نقلة نوعية عن الإخبار مثل الطبري، والوصف على طريقة المسعودي، ثم التفحص بأسلوب البيروني، إلى مرحلة التحليل والنقد والتعليل، المرحلة التي جددت الكتابة التاريخية من خلال التمحيص في استحصال المعرفة وتوخي الدقة من خلال المأخذ المتعددة، والمعارف المتنوعة، فيقول ابن خلدون“ التفنن في العلم إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله“.[[18]](#endnote-19) إن التغيير الذي مارسه ابن خلدون في الكتابة التاريخية خلق تأطيرا جديدا لعلم التاريخ، يستطيع فهم أسباب حدوث الحدث التاريخي، وربطه بشروط وقوعه، ومن هذا المنطلق يمكن أن نعتبر عمل ابن خلدون خاصة ”المقدمة“، ميلاد تاريخ عربي جديد كعلم مؤسس له بمرجعية نظرية لازمة، تضع الحدود المنهجية الفاصلة بين علوم الدين وعلم التاريخ،[[19]](#endnote-20) فالأولى تعتمد على ”الجرح والتعديل“، بينما الثاني يستعمل فيه قانون المطابقة، أو ما اصطلح عليه ابن خلدون مبدأ“ الإمكان والاستحالة“، وهو المبدأ الذي استعان به من أجل منح كتابة التاريخ دلالتها العلمية، فالمؤرخ من هذا المنطلق لا يهمه إحصاء الأخبار وتسجيلها فقط، بل الكشف عن الأسباب التي تحكم صيرورة الظواهر الاجتماعية في التاريخ، كما تميزت كتابته بمنهج النقد التاريخي،[[20]](#endnote-21) أي نقد الخبر من خلال البحث عن نقطة ضعفه، والمتمثلة حسب ابن خلدون في ”النقل“، لهذا اشترط في النقل كي يكون صحيحا، أن يحكم إلى أصول العادة، وأن يحكم على طبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الإنساني، بالتالي فالمؤرخ من وجهة نظره، لا يتقبل الأخبار كما وردت له إنما يتعامل معها من خلال نقدها.

لكن بالرغم من عقلانية ابن خلدون التي أشرنا لها سابقا، فقد سجلنا من خلال قراءة بعض نصوصه أنه كان يؤمن بـ ”الغيبيات“ أي بالسحر والطلاسم والكهانة، بل ويخصص الحديث عنها في الفصل الثامن والعشرون من ”مقدمته“، فيقول في تعريفها: ”هي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات“.[[21]](#endnote-22) إن تعرض ابن خلدون لهذه المسائل ”الغيبية“ حسب الجابري ، لا يطعن في تفكيره مادام العلم كان يقبل مثل هذه الأمور في عصره، كما أنه لا يضر في شيء عقلانية ابن خلدون، إضافة إلى أن دراسته للعمران البشري، ألزمته التعرض لهذه المسائل ومحاولة فهمها،[[22]](#endnote-23) ومن جهة المقريزي نلاحظ أنه ذهب في نفس الاتجاه، خاصة وأنه كان عالما بالتنجيم، بالتالي نجده يربط بعض الظواهر والأحداث بعلم الغيبيات، كما كان يفسرها بالأقدار الإلهية فيقول على سبيل المثال في ”الاتعاظ“: ”أبو علي بن منصور العزيز بالله... ولد بالقصر من القاهرة والطالع من برج السرطان سبع وعشرون درجة.“[[23]](#endnote-24) كما أن اعتقاده بهذه الأمور جعله يسقط في فخ نقل بعض الأساطير من بعض مصادره، حيث نجده ينقل عن البكري قوله: ”ويقال أن التمساح لا يضر منطقة أنصنا لطلاسم وضعت بها“،[[24]](#endnote-25) ولعل هذا النوع من التحليل راجع الى الثقافة السائدة في عصره التي لم تستطع التخلص من رواسب الماضي، والتي لم يستطع المقريزي أن ينفلت منها.[[25]](#endnote-26)

وبالعودة إلى التنظير الذي نظر له ابن خلدون في ”المقدمة“ فإننا نجده ينقل التاريخ من حالته القلقة، في الموقع بين العلوم إلى مرحلة التاريخ كعلم له شروطه وتنظيراته، إلا أن الدارس لتراث ابن خلدون يتساءل هل كان حذوه حذو المؤرخين السابقين في ”كتاب العبر“ طبيعيا؟

نلغي فرضية كتابته ”لكتاب العبر“ قبل كتابة ”المقدمة“، لأن هذا يشكل تفسيرا بسيطا وسهلا قد لا يستند على معلومات دقيقة خاصة وان ابن خلدون لم يورد أي عبارة تفيد بذلك، ونذهب إلى أن ابن خلدون كان واعيا بعدم تطبيق تنظيراته المنهجية في ”العبر“، وذلك قد يكون راجع إلى مبررات معرفية حتمتها طبيعة الكتابة التاريخية، فالمقدمة كانت مشروعا وخطة نظرية تنتظر من يكملها أو يصل إلى نهايتها، وما يدل على ذلك هو قوله في نهايتها ”ولعل من يأتي بعدنا، ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا“[[26]](#endnote-27) من هذه القولة نبدأ مع المقريزي ونسائل منهجه في التدوين التاريخي من خلال اتباعه منهج ابن خلدون من عدمه وذلك عبر كتاب: ”الخطط“ الذي شرع المقريزي في كتابته سنة 820هـ/1417م. وفرغ منه حوالي عام 843هـ/1438م. أي قبل وفاته بعامين، وعلى ذلك فقد استغرق حوالي عشرين عاما في كتابته، ولعل اهتمام المقريزي بقضايا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في عصره راجع إلى عاملين رئيسين وهما:

 – تأثر المقريزي بابن خلدون في رؤيته للتاريخ والعمران، فالمرحلة التي تتلمذ فيها عليه من خلال حلقات دراسية، شكلت نواة لمدرسة فكرية تخرج واستفاد منها المقريزي.[[27]](#endnote-28)

 – معايشته للواقع المصري من خلال تقلده لوظائف كان من أهمها، محتسب القاهرة، ولا يخفى علينا ما تمنحه هذه الوظيفة لصاحبها من قدرة على الاختلاط مع كافة فئات المجتمع، خاصة في الأسواق.

ففي هذا الكتاب نجده مثلا يقدم أسباب وعوامل ظهور النظام الإقطاعي بمصر خلال الفترة المملوكية، فيربط وجوده بالطبيعة العسكرية للنظام المملوكي ونشأته، كما يلقي الضوء على القوى المستفيدة منه، ويصنفها تراتبيا من الأمراء، والأجناد، ثم في الأخير القسم المحبس على الجوامع والمدارس، ثم يعرض لمظاهر الأزمة التي عاشتها الدولة المملوكية ويربطها بشكل منطقي مع الإقطاع الذي كان من أبرز أسبابها.[[28]](#endnote-29) فمن خلال هذا النموذج نجد أن المقريزي خرج عن النهج المتداول في طريقة كتابة الخبر التاريخي، فقد استهل الحديث عن الأسباب والعوامل المؤدية للظاهرة، ثم ربطها بالمؤثرات الخارجية والداخلية، ليخلص لنتائجها وتأثيراتها، كما أنه حافظ على كرنولوجية الأزمنة التي تناولتها دراسته، وهو بذلك قد استفاد من أستاذه ابن خلدون، حيث رسم لعمله ترتيبا تاريخيا استهدف منه كتابة تاريخ كل دولة من الدول الإسلامية في مصر حتى عصره في مؤلف واحد مستقل،[[29]](#endnote-30) إلا أن ابن خلدون تجاوز المقريزي عندما ضم إلى كتابه ”العبر“ تاريخ أمم أخرى فقد مال إلى كتابة تاريخ عالمي وكوني، بحيث أرخ للفرس والأتراك بالإضافة إلى اليونان والرومان،[[30]](#endnote-31) بالتالي كان مشروعه أوسع من مشروع المقريزي الذي قارب تاريخ مصر فقط، فابن خلدون.

### 2. حقول الكتابة

اختلفت وتعددت الحقول المعرفية، التي تناولها كل من المقريزي وابن خلدون في تصنيفاتهم، فتحدثا عن الدولة ومقوماتها، وعن المجتمع وفئاته، كما تحدثا عن الاقتصاد الذي يؤثر في كل ما سبق، فغيابه يساوي انهيار الدولة والمجتمع، وحضوره يقوي الدولة وينمي المجتمع، وانطلاقا من هذا الطرح سنخصص الحديث عن الحقل الاقتصادي لما له من تأثير مباشر على باقي الحقول الأخرى.

لقد أخذ الحقل الاقتصادي الحيز الكبير من كتابات المقريزي، وأعاره ابن خلدون اهتمام كبير، إلا أنه يصعب تحليل واستنباط أراءه في الاقتصاد، حيث أنه لم يضمنها في مؤلف مستقل، بل جاءت متفرقة في كتبه، كما أنه أدرجها في سياق حديثه عن حوادث تاريخية أو ظواهر اجتماعية معينة، فهو لم يفرد لها فصلا أو كتابا عكس المقريزي الذي اهتم بالقضايا ذات البعد الاقتصادي، وذلك عبر تسجيلها في كتب مستقلة، حيث تعد النقود والمعاملات داخل الأسواق والاحتكار، من بعض أبرز مساهمات المقريزي في الاقتصاد، ومن أهم الكتب التي عالج فيها هذه القضايا هو كتاب ”إغاثة الأمة في كشف الغمة“، الذي ألفه في ظروف اقتصادية جد قاسية، من واقع المجاعة التي حلت بمصر ما بين 796 و 808هـ، وما صاحبها من انتشار الطاعون والوباء.

لقد استهدف المقريزي من كتابه هذا ، توضيح الأسباب التي أدت إلى هاته الأزمة وإلى مخلفاتها، ثم أشار إلى بعض الحلول التي من شأنها رفع الأزمة،[[31]](#endnote-32) كما أشار إلى طبيعة النقود السائدة في مصر فيقول: ”اعلم أرشدك الله إلى صلاح نفسك، وألهمك مراشد أبناء جنسك أن النقود المعتبرة شرعا وعقلا وعادة إنما هي الذهب والفضة فقط، وما عداها لا يصلح أن يكون نقدا“،[[32]](#endnote-33) ونجد ابن خلدون يتحدث عن ظاهرة الاحتكار التي انتشرت في فترات الأزمات والمجاعات، ويربطها بقلة العرض، وكثرة الطلب، كما فرق بالاحتكار الفردي والاحتكار الذي تقوم به الدولة، واعتبره ”أخذ لأموال الناس بالباطل“[[33]](#endnote-34) وهو ما ذهب إليه حتى المقريزي بحيث ربطه بغلاء الأسعار في زمن الأزمة واعتبره فسادا.[[34]](#endnote-35)

ومن الظواهر الاقتصادية التي عالجها المؤرخان، هي ظاهرة غلاء الأسعار، التي لاحظنا اختلاف الرؤى بينهما، فابن خلدون يرى أن رخص الأسعار هو مضر فإذا كانت البضائع رخيصة، فهي تفسد الربح والنماء، ولا يحصل التاجر منها إلا على العناء دون الحصول على قيمة العمل البشري[[35]](#endnote-36) وهو ما يفسد رأس ماله ويؤثر حتى على الدولة، بحيث تقل جبايتها.[[36]](#endnote-37) بينما يراه المقريزي، غلاء فاحش يربط أسبابه بالظروف السياسية الناجمة عن تقصير الحكام في رعاية مصالح الرعايا، فنجده يصف الغلاء في فترة الخليفة المستنصر بقوله: ”ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء، الذي فحش أمره، وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين، وسببه ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة“،[[37]](#endnote-38) كما ربطه بالمتغيرات الطبيعية كالمناخ، ونقصان مجرى نهر النيل، وبعض الآفات الطبيعية الأخرى.

من خلال استقراء بعض الظواهر الاقتصادية عند ابن خلدون والمقريزي، نجد أنهما كانا واعيين بالأسباب الحقيقية وراء بروزها، فلم يركنا إلى التفسير البسيط المرتبط على الخصوص بالعامل الديني، بل عملا على تحليلها والنظر في مسبباتها، كما أنهم اقترحوا حلولا لها.

### 3. المصادر:

لم تختلف أنواع المصادر التي اعتمد عليها كل من المقريزي وابن خلدون، فكلاهما اعتمد على ثلاث مواد مصدرية، الأولى هي المصادر الشفوية، التي رجعوا فيها إلى معاصريهم من بين رجال السلطة والفكر والأدب، والفقهاء، أو حتى عامة الناس كالصناع والتجار وغيرهم، أما المصادر الثانية، فهي المكتوبة والمتمثلة في الغالب من كتب الجغرافية والفلسفة (العربية والإغريقية)، والكتب الدينية كالحديث والقراَن.

لقد أشار ابن خلدون إلى العديد من المؤرخين من القرون الهجرية الأولى الذين اعتمد عليهم ، وحتى من القرن السادس والسابع ، ومن بين هؤلاء نجد اسم ”ابن حزم“ يتكرر عنده كثيرًا فقد كان ابن خلدون يستعمله لتأكيد الأنساب أو مقارنتها بغيرها من المصادر الأخرى ،كما نقل عن المسعودي في كتاب ”مروج الذهب“، والبكري في كتاب ” المسالك والممالك“[[38]](#endnote-39) ومجموعة أخرى من كتب التاريخ العام، ، كما نجد المقريزي يعتمد هو الأخر على عدد من المصادر، فنقل عن المتصوفة والفقهاء، كشهاب الدين السهروردي، والشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس[[39]](#endnote-40) كما نجده يرجع إلى المعاصرين منهم كالشيخ أحمد بن علي القصار،[[40]](#endnote-41) ويقول في مناح أخرى“ وأخبرني ثقة“، أو ”وأخبرني من لا أتهم أنه شاهد“،[[41]](#endnote-42) فالصيغة الأولى نستشف من خلالها أن الخبر بالنسبة للمقريزي صحيح وذلك لمعرفته بالمخبر، بينما الصيغة الثانية، يتحفظ من خلالها على الناقل للخبر، وبالإضافة إلى هذا فقد اعتمد أيضا على كتب التاريخ العام، ككتاب ”معجم البلدان“ لياقوت الحموي، والمسعودي والبكري[[42]](#endnote-43) وغيرهم، وقد اعتمد أيضا على وثائق صادرة عن ديوان المواريث (المراسيم الصادرة عن الدولة)، فاعتمدها من أجل إحصاء عدد الوفيات،[[43]](#endnote-44) كما أن المقريزي كان دقيقا في الإحالة على مصادره، فلم يكن يكتفي بذكر صاحب الكتاب كما يفعل ابن خلدون، بل كان يشير في الغالب إلى الكاتب واسم الكتاب فنجده يقول مثلا: ”وأنشد أبو عمر الكندي في كتاب ’الأمراء‘، لسعيد القاص أبياتا.“[[44]](#endnote-45) بالتالي فهو كان يحيل إلى القارئ على مصدر معلومته عبر ذكر اسم المؤِلف والمؤَلف.

بالإضافة إلى هذه المصادر فقد استغل كل من المقريزي وابن خلدون النصوص الدينية، وعلى رأسها القران والحديث، فكثيرا ما نصادف في كتاباتهم استشهادات من النص الديني وذلك إما بطريقة الاقتباس المباشر، أي عبر نقل الآية أو الحديث كاملين مثل ما نجد عند ابن خلدون فيقول مثلا: ”وانظر ما وقع لوزراء الدولة العباسية... ﴿سُنَّتَ اللّٰهِ الَّت۪ي قَدْ خَلَتْ﴾“،المؤمن:85 [[45]](#endnote-46) وإما يتم التلميح والإشارة فقط، وهذا ما نجده عند المقريزي، فيقول: ”وهذا الغلاء دبر أمر البلاد فيه يوسف عليه السلام، وقد ذكره الله سبحانه وتعالى في قراَنه العظيم وتضمنته التوراة“،[[46]](#endnote-47) ولقد جاء الاعتماد على النص الديني لما يتضمنه من قيمة على مستوى الخطاب خاصة في الفترة قيد الدراسة، فهو يضفي نوعا من المصداقية على السياق العام الذي يأتي استخدامه فيه.

## خاتمة

في الأخير نخلص إلى أن المعرفة التاريخية التي أنتجها ابن خلدون أثرت على مؤرخي عصره، ومن بينهم تلميذه المقريزي، الذي تجاوب بشكل كبير مع منهج ابن خلدون وذلك ما يبدوا جليا من خلال كتاباته وتصنيفاته، ومن خلال رصدنا لبعض الحقول المعرفية عند ابن خلدون والمقريزي لاحظنا مدى وجود تقارب في طبيعة الحقول المتناولة بالدراسة، وعلى الرغم من هذا فقد حافظ المقريزي على ذاتيته، بحيث خصص جل اهتماماته بتاريخ مصر، بينما قارب ابن خلدون في كتابه ”العبر“ التاريخ الكوني الشمولي، وهذا الاختلاف في مجالات الدراسة هو ما ساهم في بلورة فكر تاريخي عربي شامل، قارب مواضيع مختلفة بمنهجية موحدة، خاصة في الفترات اللاحقة لعصر ابن خلدون والمقريزي. وخلاصة القول إن ما يميز دراسة ابن خلدون بمقارنته مع مفكري عصره، هو الكشف عن التأثير والتأثر الذي حصل خاصة بين ابن خلدون والمقريزي لاسيما وأنهما من بين أكبر المؤرخين الذي عرفهم العالم العربي من غربه إلى شرقه في القرن السابع والثامن الهجريين.

\* \* \*

## المصادر والمراجع

### المصادر

– ابن خلدون، عبد الرحمن، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979.

– ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، 2013.

– تقي الدين احمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، تحقيق: محمد زينهم - مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي 6، القاهرة، 1997.

– تقي الدين، أحمد بن علي المقريزي، إغاثة الأمة في كشف الغمة، دراسة تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2007.

– شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت،1992.

### المراجع العربية

– الجابري، محمد عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008.

– أومليل، علي، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.

– وجيه كوثراني، تاريخ التاريخ اتجاهات -مدارس- مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، الدوحة، 2012.

– أنطوان خليل ضومط، التأريخ في العصور الوسطى الإسلامية دراسة نقدية في المناهج، دار الحداثة، بيروت، 2005.

– أنور الجندي، نوابغ الفكر الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت، 1983.

– عبد الرحمن بدوي، مؤلفات بن خلدون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006.

– محمد الجوهري، محسن يوسف، ابن خلدون إنجاز فكري متجدد، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2008.

### المراجع الأجنبية

-Y. La coste. Ibn Khaldoun naissance de l’histoire, passe du tiers monde nouv, Ed, La découverte, paris 1998.

- Gustave Le bon, La Civilisation Des Arabes, ED Al Biruni, Beyrouth, 2014.

-Ibrahim Oweiss, ”Ibn Khaldoun, the father of Economics“, Arab civilization challenges and response, state university of New York press, 1988.

### مقالات

– علي بركات، ”الإقطاع العسكري المملوكي: قراءة في خطط المقريزي، مجلة إبداع مصر، مجلد 20، 2012.

– محمد مصطفى زيادة، ”600 عام على مولد المؤرخ المصري المقريزي“، مجلة الهلال، عدد 5، 1966، ص 28-34.

– محمد مصطفى زيادة، المقريزي المؤرخ الكبير، مجلة العربي، عدد 14، يناير 1960، ص 72-79.

\* \* \*

1. طالب باحث بمعهد الدوحة للدراسات العليا، الدوحة ، قطر. [↑](#endnote-ref-2)
2. اشتهر بين الناس باسم ”ابن خلدون“ إلا ان اسمه الفعلي كان ”عبد الرحمن“ وتلقيبه بهذا اللقب راجع الى أحد أجداده القدماء، وهو الجد الذي دخل مع الجند اليمانية إلى الأندلس، قبل ولادة ”عبد الرحمن“ بما يناهز أربع قرون. (انظر، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص16). [↑](#endnote-ref-3)
3. ابن خلدون، التعريف، مصدر سابق، ص 17. [↑](#endnote-ref-4)
4. نفسه، ص 18. [↑](#endnote-ref-5)
5. شمس الدين السخاوي، *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*، دار الجيل، بيروت،1992، الجزء الثاني، ص23. [↑](#endnote-ref-6)
6. أنور الجندي، *نوابغ الفكر الإسلامي*، دار الرائد العربي، بيروت، 1983، ص 395. [↑](#endnote-ref-7)
7. الحسبة: ”هي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفعه إليه، وليس له إمضاء الحكم في الدعاوى مطلقا، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس، في المعاش وغيرها وفي المكاييل والموازين“ (ابن خلدون، المقدمة، ص 126). [↑](#endnote-ref-8)
8. نفسه، ص 70. [↑](#endnote-ref-9)
9. محمد الجوهري، محسن يوسف، *ابن خلدون إنجاز فكري متجدد*، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2008، ص15. [↑](#endnote-ref-10)
10. نفسه، ص 18. [↑](#endnote-ref-11)
11. شمس الدين السخاوي، *مصدر سابق* ، ص 22. [↑](#endnote-ref-12)
12. وجيه كوثراني، *تاريخ التاريخ اتجاهات -مدارس- مناهج*، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، الدوحة، 2012، ص 58. [↑](#endnote-ref-13)
13. أنطوان خليل ضومط، التاريخ في العصور الوسطى الإسلامية دراسة نقدية في المناهج، دار الحداثة، بيروت، 2005، ص 198. [↑](#endnote-ref-14)
14. عبد الرحمن بدوي، *مؤلفات بن خلدون*، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2006، ص 10. [↑](#endnote-ref-15)
15. ابن خلدون، **التعريف**، مصدر سابق، ص 417-415. [↑](#endnote-ref-16)
16. ابن خلدون، *المقدمة*، المكتبة العصرية، بيروت، 2013، ص 88. [↑](#endnote-ref-17)
17. علي أومليل، *الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص 82. [↑](#endnote-ref-18)
18. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 52. [↑](#endnote-ref-19)
19. Y. La coste. *Ibn Khaldoun naissance de l’histoire*, passe du tiers monde nouv, Ed, La découverte, paris 1998, p8 [↑](#endnote-ref-20)
20. Gustave Le bon, La Civilisation Des Arabes, ED Al Biruni, Beyrouth, 2014, p573 [↑](#endnote-ref-21)
21. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 295. [↑](#endnote-ref-22)
22. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، ص 115. [↑](#endnote-ref-23)
23. تقي الدين احمد بن علي المقريزي، *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار*، تحقيق: محمد زينهم – مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي 6، القاهرة، 1997، ج1، ص 154. [↑](#endnote-ref-24)
24. نفسه، ص 571. [↑](#endnote-ref-25)
25. أنطوان خليل ضومط، مرجع سابق، ص 220. [↑](#endnote-ref-26)
26. ابن خلدون، *المقدمة*، مصدر سابق، ص 1169. [↑](#endnote-ref-27)
27. محمد مصطفى زيادة، المقريزي المؤرخ الكبير، مجلة العربي، عدد 14، يناير 1960، ص 33. [↑](#endnote-ref-28)
28. علي بركات، ”الإقطاع العسكري المملوكي: قراءة في خطط المقريزي، مجلة إبداع مصر، مجلد 20، 2012، ص 115. [↑](#endnote-ref-29)
29. محمد مصطفى زيادة، ”600 عام على مولد المؤرخ المصري المقريزي“، مجلة الهلال، عدد 5، 1966، ص 77. [↑](#endnote-ref-30)
30. علي أومليل، مرجع سابق، ص 150-144. [↑](#endnote-ref-31)
31. تقي الدين أحمد المقريزي، إغاثة الأمة في كشف الغمة، دراسة تحقيق: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2007، ص 30. [↑](#endnote-ref-32)
32. نفسه، ص 155. [↑](#endnote-ref-33)
33. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 225. [↑](#endnote-ref-34)
34. تقي الدين أحمد المقريزي، إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 94. [↑](#endnote-ref-35)
35. Ibrahim Oweiss, ”Ibn Khaldoun, the father of Economics“, *Arab civilization challenges and response*, state university of New York press, 1988, p80. [↑](#endnote-ref-36)
36. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 225. [↑](#endnote-ref-37)
37. المقريزي، إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 98. [↑](#endnote-ref-38)
38. ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص 120. [↑](#endnote-ref-39)
39. تقي الدين المقريزي، الخطط، مصدر سابق، ص 567. [↑](#endnote-ref-40)
40. نفسه، 571. [↑](#endnote-ref-41)
41. المقريزي، إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 120. [↑](#endnote-ref-42)
42. المقريزي، الخطط، مصدر سابق، ص 795. [↑](#endnote-ref-43)
43. المقريزي، السلوك، الجزء الثالث. [↑](#endnote-ref-44)
44. المقريزي، الخطط، مصدر سابق، ص 671. [↑](#endnote-ref-45)
45. ابن خلدون، المقدمة، ص 474. [↑](#endnote-ref-46)
46. المقريزي، إغاثة الأمة، مصدر سابق، ص 6. [↑](#endnote-ref-47)